مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q2].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

صدى معارك أنوال الخالدة ١٩٢١
في وعي المغاربة وآثارها الحضارية

د. إلياس الهاني
أستاذ بنظام التعليم عن بُعد
الجامعة الإسلامية بمينيسوتا
المركز الرئيس – الولايات المتحدة

مُلَخّص

مثّلت معارك أنوال الخالدة التي عرفها ريف المغرب سنة ١٩٢١ انتقالاً نوعيًا في وعي المغاربة؛ بما أحدثته في الوعي الجماعي الذي استشرت فيه مظاهر التواكل والركود الحضاري، بل وصار المغرب على إثرها ينأى بمعضلات عويصة للحد من ظاهرة الاستعمار الأجنبي التي ابتلي بها؛ فكانت انتصارات أنوال الحدث الذي هزّ كيان المغاربة ووجدانهم وجعلهم يأملون في انتشال الأوضاع الحضارية للمغرب من وَهْدَات الانكسار؛ ذلك أن الصدى الواسع الذي تركته النتائج الميدانية لسقوط الاستعمار الإسباني في بلدة أنوال أفرز وعيًا منقطع النظير لدى النخبة المغربية، وعلى رأسهم جملة من الفقهاء والعلماء وأهل الرباط الذين بذلوا جهدهم لنصرة أهل الريف بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي من خلال دعمهم المادي ومشاركة البعض منهم في إنجاح التجربة الخطّابية بمختلف الوسائل والسبل كالكتابة عنها وتبيان معالمها، والدفاع عنها، الأمر الذي يمكن به اعتبار انتصارات أنوال الانطلاقة الفعلية للوعي المغربي الحضاري اتجاه ظاهرة الاستعمار، وعليه فإن هذه الورقة ترمي إلى إبراز صدى معارك أنوال لدى النخبة المغربية العلمية، والآثار الحضارية التي تركتها على مستوى التفاعلات الإيجابية التي أفرزتها، وذلك بالإشارة إلى مظاهر هذه الأصداء وتنوعها مما كان له الأثر في انطلاق بروز الوعي المغربي وانفتاحه على كل الإمكانيات للحد من التوغل الاستعماري، من خلال ثلاث محاور يتعلق الأول بصدى معارك أنوال في المغرب، بينما يعالج الثاني منه تفاعل الوعي المغربي مع معركة أنوال بأعلامه ومظاهره، ليختم بالآثار الحضارية لمعركة أنوال في السيرورة المغربية، مستعينًا بالوثائق وبطون الكتب والسجّلات المحفوظة والمذكرات، ومتوسلاً بالمنهج الوصفي التاريخي الذي سيؤسس لرسم صورة المشهد العام لأنوال وتبعاتها من مختلف الجوانب، وكذا المنهج التحليلي الاستنباطي للكشف عن مظاهر الفعالية الحضارية للنخبة العلمية المغربية بعد انتصارات أنوال.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٧ أبريل ٢٠٢٥
تـاريخ قبــول النشــر: ٠٩ يونيو ٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

معارك أنوال الخالدة؛ الوعي المغربي الحضاري؛ الآثار الحضارية؛ النخبة العلمية المغربية؛ التاريخ الحديث والمعاصر

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.379445.1221

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

إلياس الهاني. "صدى معارك أنوال الخالدة ١٩٢١ في وعي المغاربة وآثارها الحضارية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد الثاني والسبعون: أكتوبر ٢٠٢٥. ص ١٧٦ – ١٨٤.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author elhani91@hotmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

تعتبر معارك أنوال التي جرت بين الريفيين المغاربة والجيش الاستعماري الإسباني إحدى أهم المحطات التاريخية الكبرى التي أسهمت في بداية اندحار الرؤية الاستعمارية الأوروبية، وذلك بسبب التداعيات والآثار التي تركتها صدى أنوال في العالم أجمع؛ فبقدر ما أكدت على إمكانية صد العدوان الأجنبي المدجج بأحدث التقنيات الحربية عبر إخضاعها بمقدرات ذاتية تنبع من الإيمان الأصيل بقوة الحقوق التاريخية والحضارية والوجودية سواء كانت عبر المجابهة الميدانية كما حصل في أنوال، التي استطاعت أن توقف الزحف الاستعماري على أراضي الريف بعد فقدان الفعالية الحضارية المنتجة، والارتهان نحو الركود والتبعية والانكسار، بقدر ما أسهمت في تفتق الوعي على قواعد ناظمة في الفكر الاستراتيجي والتفكير النقدي للأوضاع التي آلت إليها؛ إذ «أن الاستعمار ليس من عبث السياسيين ولا من أفعالهم، بل هو من النفس ذاتها التي تقبل ذل الاستعمار، والتي تمكن له في أرضها، وليس ينجو شعب من الاستعمار وأجناده، إلا إذا نجت نفسه من أن تتسع لذلّ مستعمر، وتخلصت من تلك الروح التي تؤهله للاستعمار[١]»، وهو الأمر الذي أدرك محمد بن عبد الكريم الخطابي مراميه، وعمل جاهدا لتجاوز آثاره على مستوى الأفراد والقبائل، ما أثمر ردًا قويمًا من طرفه على المقولات الفلسفية التي استندت عليها الرؤية الاستعمارية في تبريرها للاستيلاء والسيطرة على مقدرات الشعوب والأمم، وبذلك أضحت «ثورة ابن عبد الكريم أول حركة ايجابية من نوعها جرت في البلدان المستعمرة بعد المد الاستعماري الذي جرى على إثر انتصار الحلفاء في الحرب الكبرى الأولى، وبذلك فهي أول رد فعل أهلي زعزع كيان الاستعمار وفرض عليه أن يهيئ كل قواه لحماية نفسه من الانهيار[٢]».

وكانت أنوال بداية الشرارة التي أخضعت أوروبا الاستعمارية لضرورة مراجعة سياساتها اتجاه مستعمراتها التي طفقت للنهل من دروس أنوال التي دبّجها الخطابي بأسطر من الوعي الحضاري والتفكير الاستراتيجي وبواجبات المرحلة؛ فـ«كانت معركة أنوال بمثابة البوابة الكبيرة التي فتحها أبناء الريف، معلنين بذلك دخولهم الإنتصاري إلى التاريخ العالمي»، كما كانت المهّد لتقويض الاستعمار بالمغرب، وذلك بما أحدثته من تأثيرات في الوعي المغربي؛ حيث تعددت أصداء تلقي معارك أنوال في المغرب الداخل الذي كان يئن تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي، والذي سارعت من خلاله القوى الاستعمارية ومماليئهم إلى تشويه ما حدث بمعارك أنوال عبر صحفهم ومنتدياتهم، كما استبشرت الكثير من النخب والأعلام بهذا الانتقال التاريخي الذي حدث يوم ٢١ يوليوز ١٩٢١، بل وسارعت إلى الاحتفاء به عبر مختلف التعبيرات سواء كانت عبر الكتابة والمناشير أو تمجيدها بصنوف من الإبداعات، بل ومحاولة الكثير من النخب الإسهام في إسناد جبهة الريف الداخلية في مخاضها مع القوى الاستعمارية بالإمكانات المادية والدبلوماسية والحربية، لتبقى أصداء معراك أنوال ممتدة في الزمان والمكان يتم الاسترشاد بها عندما احتد الصراع بين المغاربة والاستعمار في مختلف اللحظات التاريخية التي أعقبت فترة العشرينيات، وتصبح أنوال علامة بارزة على الرغبة في انجلاء أوار الاستعمار في كل وقت وحين.

أولاً: صدى معارك أنوال في المغرب

أحدثت النتائج التي تلت معارك أنوال صدمة واسعة لدى الرأي العام العالمي، وتركت تأثيرًا واضحًا لدى الدوائر الاستعمارية التي أجمعت أمرها على ضرورة تقويض هذه التجربة، كما اعتبرته الدول المترنحة تحت نير الاستعمار النموذج الحضاري للخروج من ربقته، وبهذا مضت مختلف الصحف والمجلات للتعبير عن الظاهرة الخطّابية التي أضحت محلّ جدال واسع حول الطريقة التي استطاع بها مجابهة الجيوش المدججة بأحدث التقنيات الحربية، وأملا للساعين نحو التحرر في كافة البلدان الإسلامية التي تعرضت للاستعمار، وقد كان المغرب سواء بسلطاته الاستعمارية الإسبانية والفرنسية وأذرعهما الإعلامية أو النخب العلمية والأعيان والتجار وأهل الحلّ والعقد، وباقي الشرائح المجتمعية بالمغرب شديدة المتابعة لما يُعتمل شمال المغرب، ولذا يعبّر المارشال ليوطي عن خوفه الشديد جراء

امتداد التأثير الذي أحدثته تداعيات معارك أنوال على الوعي المغربي، عندما رفع تقريرا للحكومة الفرنسية بالقول: «ليس هناك ما هو أسوأ على مستقبل نظامنا من قيام دولة مسلمة مستقلة وحديثة في منطقة قريبة جدا من مدينة فاس، لأنها ستجعل من عبد الكريم مركز جذب لا للخارجين علينا فحسب، بل لكل العناصر المغربية أيضًا، ولا سيما للشباب منهم[٣]».

ولعلّ التقرير التقييمي الذي كُلّف بإنجازه الأنتروبولوجي الفرنسي روبير مونطاني من طرف الدوائر الاستعمارية الفرنسية حول الحصيلة العامة للعشرية الأولى من احتلال المغرب ما يكشف عن التأثير الكبير لمعارك أنوال وتبعاتها لدى فئات عريضة من المجتمع المغربي خاصةً النخبة العلمية منها، وهو الأمر الذي أحدث انتقالاً نوعيًا، وخطوة متقدمة للمغرب في محاولة استيعاب الظاهرة الاستعمارية؛ كونها العقبة الكأداء أمام نهوضه الحضاري واسترجاع أمجاده التليدة، إذ جاء فيه: «لا يخفى على الملاحظ اليقظ المتتبع للمجتمع الأهلي، أن المؤشرات تتعدد على كون هذا البلد يعرف منذ أربع سنوات [أي منذ معارك أنوال] عملاً داخليًا عميقًا، يمكننا من خلال رصده، أن نتبين منذ الآن توجهات المغرب الشاب[٤]»، كما يضيف هذا التقرير عن التحولات التي حدثت بعد معارك أنوال في الوعي المغربي بالقول: «إن الانتصارات الغير المنتظرة، التي حققها عبد الكريم... أدت فعلاً وبشكل سريع إلى إيقاظ سكان المغرب الفرنسي، من الفتور والسلبية، التي أظهروها من تقدم حمايتنا، وكانت المدن بطبيعة الحال أكثر حساسية لهذه الصدمة[٥]»، ولا شك أن فعل الصدمة الذي يحتدم على وعي الإنسان وسلوكه هي المرحلة الأولى لانجلاء آثار التراكم الانهزامي الذي أردى المغرب صريعا أمام القوى الاستعمارية؛ فكانت معارك أنوال الروح التي أشعلت فتيل اليقظة؛ «واستيقظت الروح في المدينة والبادية على السواء، وألهبت الحرب الريفية مشاعر الشباب والطلبة في المدن والقرى، وتجمعوا على دراسة مفاخر الحرب وتدبر أسباب الغلبة[٦]».

واضحت معارك أنوال وقائدها الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي رمزا لنهوض الحواضر المغربية بأزقة مدينة فاس وتطوان وسلا وغيرها «تشيد بانتصارات المجاهدين الريفيين وبروح الكرامة التي يتحلون بها فتعلو أصواتهم في مظاهرات تردد أجزالا وأناشيد حماسية[٧]» وتركت صدى واسعًا واهتمامًا بالغًا لكل ما يتعلق بالحرب التحريرية التي يخوضها الخطابي مع الاستعمار، وتهافت الكثير من المغاربة على اقتناء الجرائد العربية والأجنبية التي كانت ترد من خارج المغرب لتلقف حيثيات ما يحدث في منطقة الريف، لتبرز نخبة علمية مهمة تقلدت أدوارًا متنوعة في التعبير عن مساندتها لمقاومة الريف بقيادة الخطابي جراء ما حدث بأنوال، واستطاعت أن تنخرط بفعالية متميزة أمام اللحظة التاريخية بأنوال، قد لاحظ الإنجليزي والتر هاريس ذلك الاحتفاء الذي أبداه أهل فاس تجاه الخطابي نتيجة الانتصارات المتتالية له على الفرنسيين بعد الزخم الذي حصل في أنوال مع الإسبان، ويسجل ذلك، وهو الزائر للمنطقة والمتتبع لحيثياتها في تلك السنوات، فيقول: «وليس خافيًا أن غالبية سكان فاس كانوا يدعون الله في سرهم أن يكتب النجاح لعبد الكريم[٨]»، وما ذلك إلا سوى مظهر للصدى الواسع الذي أحدثته أنوال ومثيلاتها لدى المغاربة.

إذن؛ فقد مثلت معارك أنوال حدثا زلزل الوجدان المغربي، وأعاد رسم مشهد الصراع ضد الاستعمار الإسباني؛ فقد خلف النصر الساحق الذي حققه محمد بن عبد الكريم الخطابي، وثلة من أصحابه صدى واسعا في مختلف ربوع المغرب، حيث ترددت أصداء البطولة والشجاعة بين القبائل والمدن، مما أجج مشاعر الفخر الوطني والانتماء الإسلامي، وانتشرت الأخبار مشفوعة بقصص عن بسالة الريفيين وهزيمة جيش عتيد، فألهمت المغاربة ثقة جديدة في قدرتهم على مقاومة الاحتلال، وأعادت الأمل في التحرر بعد سنوات من الخضوع للهيمنة الاستعمارية.

ولم يكن صدى معارك أنوال مقتصرًا على المغرب وحده، بل تجاوز حدوده ليهز أركان القوى الاستعمارية الأوروبية كافة، فقد تلقى الإسبان الهزيمة بمزيج من الصدمة والانكسار، ما دفعهم إلى إعادة النظر في

استراتيجياتهم العسكرية والسياسية في شمال إفريقيا، وعلى مستوى الداخل المغربي، كانت أصداء المعارك متفاوتة بين مناطق الريف والمناطق الخاضعة للنفوذ الفرنسي؛ ففي حين انتعشت الحماسة في الريف واشتد عود الحركة الجهادية للخطابي، تعاملت سلطات الحماية الفرنسية مع انتصارات أنوال بكثير من التوجس، معتبرة إياه مقدمة لثورات قد تمتد إلى الجنوب والوسط. لذا، سارعت فرنسا إلى تعزيز قبضتها الأمنية، وأطلقت حملات تهديدية واسعة ضد الزعامات الدينية والوطنية، خشية انتقال شرارة أنوال إلى باقي البلاد، وفي الوقت ذاته، ولدت المعركة شعورًا قوميًا عارمًا بين المغاربة، وشكلت بداية تحول تدريجي نحو وعي جماهيري بأن الاستعمار رغم تفوقه التكنولوجي، يمكن هزيمته بالإرادة والتنظيم، لقد مهد هذا الصدى الطريق لثورات فكرية واجتماعية لاحقة ستشهدها الساحة المغربية خلال العقود التالية.

ثانيًا: تفاعل الوعي المغربي مع معارك أنوال (أعلام ومظاهر)

أعادت معارك أنوال في ذهن المغاربة ذكريات أضحت من قبيل البطولات التاريخية التي لا يتم ذكرها إلا في الكتب والروايات العالمية، وأضحت معينًا لا ينضب للنهل من عبرها، وأحدثت حالة من التفاعل بمستويات مختلفة، لتصبح أملا لانتشال المغرب من الأوضاع الحضارية المتردية التي تراكمت عليه طيلة قرون من الزمن؛ وراح الوعي المغربي يؤسس لمسار التخلص من ربقة الاستعمار، من خلال إرساء قائمة من التفاعلات الحضارية مع تجربة معارك أنوال عبر مختلف الأشكال؛ وبرزت النخبة العلمية المغربية لتسهم في خلق فرصة التواصل بين كافة المناطق المغربية التي تعرضت للسيطرة الاستعمارية، ومن هنا ينطلق محمد بن عبد الكريم الخطابي في إطلاق نداءات متكررة للنخبة المغربية يحثها على ضرورة العمل على استئصال الشأفة الكولونيالية بالمدن المغربية، ويؤكد من خلالها على الصلات الجامعة بين كافة مكوناته الحضارية؛ ففي رسالة له إلى نخبة أهل فاس عقب أنوال، يقول: «من عبد الكريم خادم المسلمين، المجاهد في سبيل الاستقلال إلى أهل فاس، كبير وصغير، خصوصًا ذوي العقول منهم، وأصحاب التأثير، إنكم أيها الإخوان، لا تجهلون، ما قمنا به في هذه الأيام من جليل الأعمال، والتضحية في سبيل استقلال بلادنا تحت الراية الإسلامية، فقد آن الوقت الذي يجب أن يقوم فيه المغرب من سباته العميق، ويتمتع باستقلاله كسائر الدول[٩]».

وعليه، أبدت النخبة العلمية تفاعلاً ملحوظًا مع نداء الخطابي؛ فـ«في فاس كان شيخ الإسلام الفقيه محمد بلعربي العلوي يتجول في شوارع المدينة وأسواقها ويخاطب الناس علانية: "ما هي مساهمتك في دعم ثورة الريف؟"[١٠]»، كما أضحت حلقاته في مسجد القرويين تعكس تحولاً في الوعي المغربي بأحاديثه عن الخطابي ودفاعه المستميت عن الحرب التحريرية التي بدأت شرارتها في الانطلاق، ذلك أنها أضحت أملا للنخبة العلمية بعد سلسلة من الانكسارات المتوالية، وأخذت باهتماماتهم كما هو الحاصل مع أحمد بن جعفر الكتاني الذي أصبح بعد انتفاضة الخطابي وتوارد أخبار معارك أنوال وما تلاها عليه شديد «الانقباض والعزلة عن الناس بحيث لا يشتغل إلا بالتدريس والوعظ والتأليف والعبادة، بعيدًا أشد البعد عن الاهتمام بأخبار الدنيا وما يجري فيها ولا يجرؤ أحد ممن يتصلون به عن الحديث معه في شيء من ذلك، فإن أخبار المجاهدين في الريف كانت تستثير اهتمامه لدرجة كبيرة[١١]»، وهو نفس ما حصل مع الشاعر الرباطي أبو بكر بناني الذي استنهض في أبيات له همم المغاربة بما توجبه اللحظة التاريخية من مساندة الخطابي والانتصار له والدفاع عنه وردّ الشبهات التي يتعرض لها من طرف الاستعمار وأذنابه؛ فيقول:

«يا بني المغرب ما هذا الرقاد
مالكم صرتم كأمثال الجماد
فدعوا النوم وقوموا للجهاد
واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب ما هذا الفتور
أو لستم ذلك الشعب الغيور
طهروا الأوطان من كل كفور
واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب سيروا للأمام

وارفعوا راية غازينا الهمام
فخرنا عبد الكريم ابن الكرام
واسألوا الله انتصار المسلمين[١٢]»

كما أن الفقيه التازي الفاسي الذي يحكي عنه حفيده المؤرخ محمد التازي سعود كان شديد الولع بتتبع أخبار الخطابي بعد معارك أنوال، فيقول: «كنت حقيقة طفلاً صغيرًا جدًا، وكان جدي الشيخ يتلقف الأخبار بلهفة، ولم نكن نعرف آلة الراديو، ولم تكن للمغاربة آنذاك صحف وطنية، ومع ذلك كان الناس يوشوشون بينهم بأخبار الحرب، وكان جدي لا يفتر لسانه عن الدعاء بالنصر للمجاهدين[١٣]»، كما برز الشيخ أحمد بن المامون البلغيثي وهو أحد علماء فاس، الذي يحكي عنه تلميذه محمد ابراهيم الكتاني تفاعله مع حدث أنوال بأنه كان «شديد الاهتمام بأخبار الحرب الريفية، وقد أتيته مرة بعدد من جريدة باريسية فيها صورة للبطل محمد عبد الكريم الخطابي فصار يقبلها ويبكي ويدعو له بالنصر على الأعداء[١٤]»، وعلى إثر معارك أنوال، نشأت جمعيات وحسابات جديدة تولتها مجموعة من الشباب المتعلم المتأثر بالحرب التحريرية، مثل ما قام به الأستاذ حسن أبو عياد من توليه لجماعة سرية تتلوى نشر «رسائل لبعض الناس موقعة باسم البطل محمد بن عبد الكريم، تشتمل على أخبار انتصارات المجاهدين وأنهم يستعدون لمهاجمة فاس، وأن على من وجهت إليه الرسالة أن يستعد لاستقبالهم والانضمام إليهم وتأييدهم[١٥]».

ولم تقتصر النخبة العلمية على جانب الاهتمام بتداعيات معارك أنوال، وإنما تجاوزت ذلك إلى المراسلة مع قائدها الخطابي؛ إذ من المعلوم أن الخطابي قد درس أثناء إقامته بتطوان وفاس على جملة من العلماء والشيوخ الذين بقي حبل التواصل معهم ممتدًا إلى زمن حدوث أنوال، كما هو الحال مع شيخه عبد الصمد كنون الذي لازمه الخطابي طيلة تتلمذه بفاس، فيذكره ابنه عبد الله أنه: «بقي على صلة بالوالد إلى ما بعد ثورته، يكاتبه ويسأله عن بعض المسائل ويوصيه ببعض طلبة الريف الذين كانوا يدرسون بطنجة، وأرسل له الوالد كمية من نسخ أربعين حديثًا في فضل الجهاد والحض عليه[١٦]»، كما تواصل الخطابي مع النخبة العلمية لعلمه بمدى التأثير الذي يحدثه أهل الفكر والقلم في مجتمعاتهم، وذلك قصد تشكيل جبهة موحدة تتصدى للاحتلال الأجنبي، كما هو الحال مع شيخه أحمد بن الجلالي يستحثه على مجابهة أذرع الاستعمار، وشيخه عبد العزيز بناني، وكذا القاضي العراقي الذي بيّن فيها مقاصد الاستعمار وضرورة الصد له بكل السبل والوسائل، وهو نفس ما قام به مع شيخه عبد الرحمان بن القرشي.

وقد امتد تأثير معارك أنوال على وعي النخبة العلمية بأنحاء متفرقة من المغرب، مما حدا بالكثير منهم للإسهام بشكل مباشر في عملية النهوض التي أرسى معالمها الخطابي؛ إذ بمجرد ما طفق خبر أنوال ينتشر بين جموع المغاربة حتى التحق به زميله الشيخ إدريس بن عبد السلام السلاوي الذي لازمه إلى حين وفاته سنة ١٩٢٣، وهو نفس ما فعله الفقيه عبد السلام المرابط الذي تولى قيادة معارك حربية بكل من فشتالة وبني كيسان وبني زروال وعدة مناطق بحدود فاس صدا لفرنسا، وفي معارك ببنقريش بتطوان صدا للإسبان، وذلك كله تحت راية الخطابي، وساهم شيخه محمد بن جعفر الكتاني بمجرد سماعه بمعارك أنوال بمدد غزير من الأموال والسلاح الذي كان يرسلها بطرق خاصة إلى الخطابي، وهو الأمر الذي دفع جريدة الزمان الفرنسية أن تكتب عن وفاته سنة ١٩٢٧: «لقد مات أكبر عدو لفرنسا بالمغرب[١٧]» وذلك بسبب جهوده الكبيرة المضنية لصد السلطات الاستعمارية، وقد أشارت وثيقة مهمة إلى الصلة الوثيقة التي جمعت الخطابي بنخبة جنوب المغرب؛ و«خاصة مع الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، أرسل الخطابي إلى الشيخ المعيني عددا مهما من العتاد والذخيرة، وذلك بعد معركة أنوال سنة ١٩٢١م، وكانت بينهما مراسلات تتعلق بالمقاومة[١٨]»، والتحق بالخطابي كذلك الشيخ محمد المامون أحد أعلام الفكر والجهاد بالجنوب، «وقد أبلى بلاء حسنا، وجرح في بعض المعارك وظل إلى جانب زعيم الريف إلى أن انتهت الحقبة الجهادية[١٩]»، وهو نفس ما حاول القيام به الشيخ أحمد بن المامون البلغيثي الفاسي، وكان

في سن السبعين من عمره، إلا أنه اصطدم بعدة عراقيل أحجمته عن الالتحاق بالخطابي.

وقد تجاوز تأثير معارك أنوال ليشمل مؤسسات بأبعاد علمية ودينية واجتماعية تتمتد جذورها في الحضارة المغربية، وقد تعددت مظاهر الوعي الذي أبدته في مختلف المناطق، وهي مؤسسة الزوايا على غرار ما قامت به الزاوية المعينية بالريف الشرقي، والزاوية الكتانية، والزاوية الخمليشية، والزاوية العليوية شرق الريف، والزاوية الهبرية وغيرها، سواء ما يتعلق بالمساندة المعنوية أو المباشرة عبر التحاق الكثير من منتسبيها لمنطقة الريف، ومراسلة الكثير من نخبها مع الخطابي، على الرغم مما قامت به زوايا أخرى من خذلان وتواطؤ مع الاستعمار.

فلقد كان لتفاعل الوعي المغربي مع معارك أنوال مظهران بارزان: أحدهما اجتماعي، والآخر فكري؛ على المستوى الاجتماعي برزت شخصيات دينية ووطنية تدعو إلى الوحدة والجهاد، وعلى المستوى الفكري، بدأت تنتشر خطب الجمعة، والقصائد الملحمية، والمراسلات السرية بين قادة الحركة الوطنية الوليدة، مما يدل على أن معارك أنوال لم تكن مجرد انتصار عسكري، بل كانت مصدر إلهام فكري وثقافي ساهم في تبلور وعي جماعي بقضية التحرر والمقاومة المنظمة.

وعلى الرغم من أن معارك أنوال كانت لحظة فريدة في تفعيل الوعي الوطني المغربي، إلا أن مظاهر التفاعل معها اختلفت بين الفئات الاجتماعية والثقافية؛ فقد أبدت النخبة الدينية التقليدية حذرا في التعامل مع النتائج السياسية للمعركة، حيث كانت تخشى أن يؤدي الانخراط في صراع مفتوح مع المستعمر إلى فقدان بعض امتيازاتها، في المقابل، برز جيل جديد من المثقفين الشباب، خاصة في المدن الكبرى كفاس ومراكش، يحمل تصورات أكثر جرأة تدعو إلى بناء حركة وطنية حديثة، ومن جهة أخرى، تفاعلت القبائل مع نصر أنوال بطريقة عملية، حيث زادت من تنظيم صفوفها وأعادت النظر في تحالفاتها المحلية، كما ظهرت كتابات محدودة، لكنها مؤثرة، تتحدث عن ضرورة تجاوز الانقسامات القبلية والطائفية لبناء جبهة تحرير شاملة.

وفي هذا السياق، يمكن القول إن تفاعل المغاربة مع أنوال لم يكن رد فعل موحدا، بل كان بداية لجدل طويل حول طبيعة المواجهة مع الاستعمار، وأسس بناء الدولة الوطنية الحديثة، وهو جدل سيمتد أثره إلى مرحلة ما بعد الاستقلال.

ثالثًا: أثر معارك أنوال في انبثاق الوعي الحضاري المغربي

شكلت معارك أنوال لدى المغاربة بعدا يتجاوز الاحتدام القائم بين معسكرين غالبًا ما يحصل نتيجة صراعات سياسية أو لإحراز البطولة والمجد، أو تصفية حسابات ضيقة قد تأتي على الأخضر واليابس، وإنما هي علامة فارقة وسيرورة وجودية أمام تهديد إمبريالي يستند على نظريات عرقية تحتكر الأرض، وتستولي على المقدرات الباطنية، والخيرات الطبيعية، وتتولى استنزاف طاقات الأهالي، وتقذف بهم نحو لجج الاستعباد والإذعان، وترهن البلاد نحو إرادة الدولة الاستعمارية لتصبح الدولة المستعمَرة جزءا تابعا لها كما هو دأب الاستعمار في كل زمان ومكان، وقد كان الخطابي مدركا لهذه المرامي بعد إقامته بمليلية واشتغاله مع الدوائر الاستعمارية لفترة من الزمن، الأمر الذي جعله ينتبه إلى الوسائل التي يحاول بها الاستعمار القيام بتجريد المغرب من وعيه الحضاري، ومن ثمّ فقدانه لوجوده، ولعلّ في رسالته إلى النخبة المغربية عقب معارك أنوال وتذكيره بالشعوب التي فقدت وجودها وانمحى أثرها على مرّ التاريخ ما يجلي مرامي الاستعمار، فيقول: «كفانا موعظة واعتبارًا ما وقع لإخواننا بالأندلس وما آل إليهم أمرهم من العز إلى الذل ومن الإيمان إلى الكفر، ففي مثل هذه الحالة يستعذب المؤمن الموت ويفضل العدم على البقاء، هكذا عهدنا أسلافنا وعرفنا من تاريخهم المجيد أنهم لا يرضون الخضوع والمسكنة، ولا يبتغون من الحياة إلا أن يعيشوا أحرارًا، ويموتوا أبرارًا[٢٠]».

ولذا كانت معارك أنوال تمثل استئنافًا للوعي الحضاري المغربي انصبت على رؤية إبداعية على غير ما درجت عليه الحروب السابقة التي غالبا ما تنحو إلى فكرة تحقيق الانتصار والبطولة فقط، بينما رامت أنوال

تخليد فكرة البقاء، وفي هذا يقول مالك بن نبي الذي كان شديد التأثر بما حدث بأنوال ساعيا بجهده للالتحاق بالريف: «ولقد كان الأمير الأول عبد الكريم الخطابي آخر من ارتشف من كأس البطولة الموروثة عن أجدادنا الأول، ولم يبق بعده باق ممن يهبون للنضال ضد المستعمر، من أجل البطولة المجردة، في سبيل الخلود على سنة الذين عقدوا ألويتهم للكفاح؛ فقد كانت القبائل العربية والبربرية تقاتل معه لا من أجل البقاء، ولكن في سبيل الخلود، ولقد كتب لها الخلود بما أوتيت من روح رفعتها فوق الهاوية[٢١]»، وذلك بعدما استطاعت أن تخضع القوة التي امتلكها الاستعماريون بقوة الحق، «وهكذا تبين للمغاربة بالتجربة، ولأول مرة أنه بالإمكان ضرب السيطرة الاستعمارية الغربية إذا ما توفر التنظيم الجيد الفعّال[٢٢]»، ولذا أدرك الشيخ أبو شعيب الدكالي هذا الأفق الحضاري الذي بدأ يسطع من ريف المغرب بعد علمه ولقياه بالوفد الريفي الذي أرسله محمد بن عبد الكريم الخطابي للسلطان يوسف لتبيان مرامي معارك أنوال، والتي يلخصها الخطابي في نداء له بالقول: «غايتنا الوحيدة ومقصودنا المنشود هو طرد الأعادي من تراب المسلمين والوصول إلى إصلاح شؤوننا ماديا وأدبيا، لنحيي بذلك ما اندرس ونجدد مجد الأسلاف، وما ذلك ببعيد على رجال المغرب ومفكريه إن قاموا قيام رجل واحد، وعملوا ما يحقق هذا الأمل بالقول والفعل[٢٣]»، فعلى هذا الأساس استندت الرؤية الإصلاحية للخطابي في مساراتها المتعددة، ولعلّ أنوال كانت النافذة لولوج عالم الحضارة، بما قامت عليه من قيم ترنو لرفعة الإنسان وتحريره من السيطرة الأجنبية كشرط أساسي للبناء والارتقاء، لتتحول بعدها إلى أفق حضاري أرحب للمغرب.

ولعلّه من سديد قول محمد عابد الجابري اعتباره المحطة التاريخية للخطابي منذ معارك أنوال تحولاً استراتيجيًا في انبثاق الوعي المغربي؛ إذ يقول: «ولابد هنا من التأكيد على دور ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي بالريف (١٩٢١-١٩٢٦) في هذا التطور. إن أصداءها المدوية التي كانت تصل إلى المدن والبوادي، والتجاوب الواسع الذي لقيته من طرف الجماهير الشعبية ونخبتها الواعية والذي كانت تغذيه وتعممه لجان الدعاية وجمع التبرعات للثورة، كل ذلك قد خلق جوًا جديدًا في المغرب كان من أبرز مظاهره الفكرية تحول الدعوة السلفية إلى حركة وطنية تدعو إلى التحديث والتحرر[٢٤]»، ومع بروز الدعوة السلفية الوطنية ذات الدلالات الحضارية العميقة التي قامت بمحاولات مضنية في سبيل رفعة شأن المغرب وتحديثه؛ ذلك أن «السلفية المغربية كانت تجديدية، بمواجهتها للطرقية وللفكر الغيبي، وباستعابها النسبي لأسس الفكر الحداثي، الذي واجهت به الفكر الاستعماري[٢٥]» وبالتالي تشييد مسببات الاستنهاض، والقطع مع زمن الركود والتطلع نحو المغرب الجديد.

فلم تقتصر آثار معارك أنوال على الجانب السياسي أو العسكري فحسب، بل امتدت إلى إنعاش الوعي الحضاري المغربي؛ فقد دفعت هذه المعارك العديد من المفكرين والناشطين إلى إدراك أهمية بناء مشروع حضاري متكامل قادر على التصدي للغزو العسكري والثقافي معًا، ونشأت قناعة جديدة بأن التحرير لا يكون فقد بالسلاح، بل بتجديد التعليم، وإحياء ما اندرس من أمجاد المغاربة، وتعزيز هوية الانتماء، وبهذا ساهمت أنوال في بزوغ خطاب حضاري يربط بين مقاومة الاستعمار وبين ضرورة النهوض بالأمة في جميع مجالات الحياة.

ومع أن معارك أنوال أنعشت الوعي الحضاري المغربي، إلا أن هذا الوعي لم يكتف بالدعوة إلى الحفاظ على التراث والهوية فقط، بل بدأ يتجه نحو فكرة التجديد والإصلاح الشامل؛ فكانت أنوال بمثابة صدمة ثقافية إيجابية حثّت المثقفين والعلماء على مراجعة مفاهيم التقدم والتأخر، وأدركوا أن الاستقلال الحقيقي لا يكتمل دون تحديث مؤسسات التعليم، وإصلاح القضاء، وإنشاء الصحافة الحرة، وتشجيع العلوم الحديثة؛ وهكذا نشأت جمعيات ثقافية وجمعيات مدرسية سرية كانت تهدف إلى تعليم الشباب روح الوطنية والحداثة، بعيدًا عن الأطر التقليدية الجامدة، كما برزت دعوات مبكرة إلى تعليم الفتيات، وتوسيع دائرة المشاركة الاجتماعية، مما شكّل نواة لنهضة فكرية لاحقة.

لقد كانت معارك أنوال بداية لتبلور مشروع حضاري مغربي خاص، يقوم على التوازن بين الأصالة والانفتاح، بين التشبث بالهوية الإسلامية والسعي إلى الاستفادة من منجزات العصر الحديث، وهو مشروع سيجد صداه القوي لاحقًا مع حركات الإصلاح التي ستتسع خلال القرن العشرين.

خَاتمَةٌ

انطلاقًا مما سبق ذكره، وبعد هذه الجولة التاريخية في رحاب بعض التداعيات التي عرفتها معارك أنوال وتأثيراتها على الوعي المغربي؛ يتبين ما يلي:

شكلت معارك أنوال نقلة كبرى على المستوى العالمي، وكانت لها تداعيات شملت كافة البلدان الاستعمارية، ووجدت فيها الدول المستعمَرة أملاً للانفكاك من السيطرة الأجنبية، وذلك بسبب الإبداع الاستراتيجي الذي سارت عليه حيثيات المعركة. كما أن لمعارك أنوال صدى مغربي واسع، سواء عند سلطاته الاستعمارية الإسبانية والفرنسية أو جمهور المغرب، وقد لوحظ مدى التغيير الذي أحدثته في الجو العام المغربي، مما حدا بالنخب العلمية المجموعة في جملة من أهل الفكر والنظر والفقه والحل والعقد، والقادة والأعيان إلى تفاعلهم الآني مع المعارك وقائدها الخطابي.

تنوعت وتعددت مظاهر التأثير الذي أحدثته معارك أنوال في الوعي المغربي، فشمل ذلك مجال الكتابة بالدفاع المستميت عنها، وإبداع تعبيرات أدبية مثل الشعر والحكاية وغيرها، وقد امتد التأثير إلى خلق جبهات إسناد بالمال والسلاح لمجابهة القوى الاستعمارية. كما برز أعلام في مختلف الحواضر المغربية خلدت تفاعلها مع معارك أنوال بالانضمام إلى صفوف المجاهدين، بل وتقلد الكثير منهم أدوارًا قيادية عسكرية مهمة، وذلك بسبب ما مثّلته هذه المعركة من بدايات للتحرر من الأسر الاستعماري. يمكن اعتبار معارك أنوال الشرارة التي انبثقت على إثرها موجّهات حضارية امتدت عبر التاريخ للنهل من استراتيجيات التحرير لدى المغاربة في مختلف المحطات التاريخية، وبقيت آثارها تومض في الوعي المغربي أملا ونموذجا للتحرر.

وعلى سبيل الختم، فإن لأنوال ومثيلتها تأثيرًا على الوعي المغربي لا يمكن عدّ جميع جوانبه ومظاهره، وكذا أعلامه ورموزه، وذلك لغياب الكثير من المستندات التي رافقت هذه المرحلة التاريخية، وما ذُكر مجرد قبس قصير لا يمثل سوى النزر اليسير من تلك المرحلة.

الإحالات المرجعية:

(١) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، دار الفكر، سوريا، ط4، 2022، ص٢٤.
(٢) محمد العلمي، **زعيم الريف محمد عبد الكريم الخطابي**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص٥.
(٣) محمد عمر بلقاضي، **أسد الريف محمد عبد الكريم الخطابي**، مطبعة سلمى، الرباط، ط٢، ٢٠٠٦، ص٢٠٧.
(٤) محمد المكي الناصري، **إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة، من مناهضة الطرقية إلى مقاومة الاحتلال**، دراسة وإعداد، إدريس كرم، طوب بريس، الرباط، ط1، 2010، ص١٦.
(٥) محمد المكي الناصري، **إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة**، من مناهضة الطرقية إلى مقاومة الاحتلال، ص١٧.
(٦) فاطمة الجامعي الحبابي، **حرب تحريرية في ظروف مدلهمة، عبد الكريم غلاب**، ضمن: "محمد بن عبد الكريم الخطابي في أحاديث أقطاب الفكر والنضال الوطني بالمغرب"، دار أبي رقراق، الرباط، 2013، ص٢٩٢.
(٧) فاطمة الجامعي الحبابي، **محمد بن عبد الكريم الخطابي في أحاديث أقطاب الفكر والنضال الوطني بالمغرب**، ص 358.
(٨) **فرنسا وإسبانيا وحرب الريف**، والتر هاريس، ترجمة حسن الزكري، مركز جسور للدراسات التاريخية والاجتماعية، ٢٠٢٥، ص.١٨.
(٩) فاطمة الجامعي الحبابي، **محمد بن عبد الكريم الخطابي في أحاديث أقطاب الفكر والنضال الوطني بالمغرب**، ص 373.
(١٠) عبد اللطيف جبرو، **المهدي بن بركة: الرياضيات مدرسة للوطنية**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، بدون رقم الطبعة، ١٩٩٥، ص٧٨.
(١١) محمد إبراهيم الكتاني، "**ماذا استفاد المغرب من حرب الريف التحريرية**"، مجلة أمل، العدد٨، ١٩٩٦، ص١١٢.
(١٢) عبد الله كنون، **أحاديث عن الأدب المغربي الحديث**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1984، ص 73.
(١٣) فاطمة الجامعي الحبابي، **من شيخ المؤرخين الشاعر الفاسي إلى شيخ الأبطال أمير الجهاد الريفي**، ضمن أعمال اليوم الدراسي، محمد عبد الكريم الخطابي وقضايا مغرب اليوم، دار أبي رقراق، الرباط، 2013، ص٢٤٦.
(١٤) محمد إبراهيم الكتاني، "**ماذا استفاد المغرب من حرب الريف التحريرية**"، مجلة أمل، العدد٨، ١٩٩٦، ص١١٣.
(١٥) محمد إبراهيم الكتاني، "**ماذا استفاد المغرب من حرب الريف التحريرية**"، مجلة أمل، العدد٨، ١٩٩٦، ص١١٣.
(١٦) عبد الله كنون، **ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة**، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٠، ص١٥٦٣.
(١٧) عبد الله كموني، **البعد الفكري في شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي**، ٢٠٢١، المغرب، طبعة خاصة، ص٢٨٥.
(١٨) عبد الله كموني، **البعد الفكري في شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي**، ص٢٨٣.
(١٩) عبد الله كموني، **البعد الفكري في شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي**، ص٢٨٤.
(٢٠) عبد الله كنون، **أحاديث عن الأدب المغربي الحديث**، ص٦١.
(٢١) مالك بن نبي، **شروط النهضة، مالك بن نبي**، ص١٦.
(٢٢) محمد زنيبر، "**دور الخطابي في حركة التحرر الوطني بالمغرب**"، مجلة الملتقى، العدد ٤٢، مراكش، ص٩١.
(٢٣) محمد داود، **تاريخ تطوان**، مراجعة حسناء داود، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2009، مجلد11، ص247.
(٢٤) محمد عابد الجابري، **مواقف إضاءات وشهادات**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ٢٠٠٥، ط١، ص٧٨.
(٢٥) المصطفى بوعزيز، **الوطنيون المغاربة في القرن العشرين**، الارتباط العضوي بين السياسي والاجتماعي، أفريقيا الشرق، ط2، 2021، ص٢١١-٢١٢.